كلمة أصدقاء الفقيد

ألقاها الأستاذ الدكتور مازن المبارك

عضو مجمع اللغة العربية

باسم الحي القيوم الذي لا يموت، والذي قضى على عباده بالموت، وجعل كل إنسان إلى انتهاء وكل عمر إلى انقضاء.

وجعل موت الأحباب امتحانًا لما في الصدور، وجعل إخواننا وهم من أهل القبور أوعظ لنا نحن معاشر الغافلين واللاهين مما كانوا في حياتهم .

أخي عبد الكريم

ما كان أسعدني بك حين رشحتك عضو شرف في مجمع اللغة العربية فكان إجماع الإخوة الزملاء هو الجواب. وكنت على عزم إعداد كلمة أستقبلك بها عضوًا في المجمع ففتّني ومضيت وجعلت اللقاء فراقًا والاستقبال وداعًا.

وإني وإن قُدْمتَ قبلي لعالم بأني وإنْ أبطأت منك قريب

وإن صباحًا نلتقي في مسائه صباح إلى نفسي الغداة حبيب

ولكل حدث عندنا حيلة نلتقيه بها، وما حيلتنا مع مصيبة الفقد إلا الصبر. ولكن كلما عظم الرُّزْء وجلّت المصيبة قلّ العوض وضعف الصبر والجلد وضاق الصدر... كلما مضى قبلك الأصحاب عظم المصاب، لأنك بقيت وحدك تنتظر أن يفتح لك الباب لتلحق بالأحباب الذين ابتلعهم الغياب... لقد كنا ثلاثة التقينا وتعارفنا على باب دار المعلمين العليا بجامعة دمشق عام ١٩٤٨ عاصم البيطار وعبد الكريم الأشتر ومازن المبارك، كنا لا نفترق إلا لنلتقي، وما كان لنا من فراق إلا على أمل اللقاء... وتوجّه نحونا القضاء وسدّد

إلينا سهم الفناء ففرقنا وشتت شملنا.. وأبقاني وحيدًا لا رجاء لي في اللقاء... فلا أقل من أن أقول فيمن مضى كلمة وفاء.

جمعتني بالدكتور عبد الكريم الأشتر أيام دراسة في الجامعة، بل جمعنا مقعد واحد أربع سنوات، وجمعتنا سنوات الدراسات العليا في القاهرة، وجمعتنا زمالة تدريسية في جامعة دمشق... بل قل لقد جمعتنا الحياة في الحلّ والترحال، في الإقامة وفي السفر، في الشدّة والرخاء. وكنا ثلاثة إخوة عاصم وعبد الكريم ومازن، خرجنا من رحم واحدة هي رحم الأخوَّة والمودّة، ما عرفنا غيرها صلة ارتفعت بنا عن سفاسف الحياة، وعشنا ساعات صفاء ونقاء ومودة وإخاء، كان الدكتور عبد الكريم فيها بيننا الرجل الإنسانيَّ النزعة، اللطيف العشْرة، الصادق الألفة، البعيد كل البعد عن التكلف أو التصنع...

وكان – رحمه الله – إذا سمع من أحدنا كلمة لا تعجبه مرّ كأنْ لم يسمعها، وإذا رأى منّا شيئًا لا يعجبه أغضى كأن لم يره. كنا نراه أديبًا بالطبع والفطرة، فنترك له قراءة النصوص بنثرها وشعرها فيقرأ كل كلمة بمعناها وكل حالة بمقتضاها لهجة وحركة...

لقد كانت له صفاته في الخلق والسلوك وفي التربية والتعليم وفي الثقافة بسعتها وشمولها، مما جعل طلابه يعشقون درسه، ويلتفون حوله بحبّ وتقدير وإعجاب... ولقد ترك في نفوس طلابه وقرّائه أثرًا باقيًا محبَّبًا يذكرونه به كلما ذكر، ويثنون على ما وجهَّهم إليه ونبهّهم عليه من أدب الدرس والنفس... وكان على هدوء طبعه وخفض صوته وطول نظرته لا يكتم غضبه إذا غضب، ولا يطوي رأيه إذا نقد، بل يصرح ويعلن وينشر ويخوض معارك الرأي بلسانه وقلمه، وكانت له في ميدان نقد التحقيق والتأليف صولات وجولات تذكر بعضها صحافة العراق، وتذكر بعضها الآخر صفحات في صحف الإمارات...

لقد مرّت بالدكتور عبد الكريم أحداث كثيرة في الشام ومصر والجزائر والإمارات، رأى فيها الحياة بحلوها ومرّها، وعاشر فيها من الأدباء والأعلام من بقي يذكرهم حتى آخر

حياته بالحب والوفاء، كالدكتور محمد مندور والدكتور إسحاق موسى الحسيني... وكنت أرى فيه الرجل الذي يستخلص من أحداث الحياة دروسها، وكثيرًا ما كان يعبّر عما انتهى إليه من حكَم في حياته كأن يقول: أغنى الرجال أقنعهم. ويقول: أرقى أخلاق الرجل أن يكون صادقًا مع نفسه وصادقًا مع الناس.

وكنت أرى فيه الغيرة على أمرين اثنين طالما صرح برأيه فيهما، أما الأمر الأول فكرهه للصّحبة (للشُّلَل) القائمة على التجمع والتعصب لرأي أو نزعة أو فكر، تلك التي لا يرى أفرادها بعضهم في بعض إلاّ الإحسان والجودة والتفوق! ويعميهم تعصبهم عن رؤية الحقيقة في أدب أو شعر أو نقد.. وأما الأمر الثاني فغيرته على اللغة العربية ودفاعه عنها.

وبعد فإن حياة غنيّة عريضة عشناها معًا ستين سنة لا يمكن أن يفيها حقَّها حديث ينقضي بدقائق فما سجّلته السنوات لا تستعيد ذكرياته الدقائق.

وما وعته العقول وانطوت عليه النفوس وعاش مع خفق القلوب تعجِز عن التعبير عنه الألسن والأقلام.

والدكتور عبد الكريم الأشتر أكبر من أن تُجمع صفاته في صفحات، أو تقوى على جمع فضائله وشمائله الكلمات، وإن الألم لفقده لا ينتهي.

وما رأيت داءً أقتل للأحياء من موت الأصدقاء، إنه الموت الذي لا يقتل مَن يُميته قَتْلَهُ لأخيه ومُحبه.. إنه ينـزل بمن يميتهم فيريحهم من دنياهم ولكنه ينزل بإخوانهم قاتلًا يَقتل ولا يُميت، يقيم ويقعد، يزلزل الأركان ويهّد الضلوع ويُسيل الدموع ويملأ النفس هما وغما.

إنه يستبدلهم بالحبيب الذي قضى فراغًا لا يمتلئ، وحزنًا لا ينقضي وشوقًا لا ينتهي!

ولعل من أشد الناس مصيبة وأكثرهم إحساسًا بألم الفقد من كان أكثرهم صلة بالفقيد وأطولهم عيشًا معه وأغناهم ذكريات جامعة.

وإن من أفدح الناس رُزءًا وأشد الأخبار وقعًا وسوءًا من كان ينتظر لقاءك ليسعد بالترحيب بك فيشقى بنعيك ويأسى بوداعك.

وإني متى لم ألزم الصبر طائعًا فلا بدّ منه مُكرهًا غير طائع

وعلى ما في القلب من جروح وما في النفس من ألم الفقد، لا نقول إلا ما يرضي ربَّنا، إنا لله وإنا إليه راجعون.

أحسن الله عزاءنا وعزاء أهلك وأولادك فيك، وأحسن مثواك عنده، وقضى لنا ولك بالرحمة والغفران.